بسم الله الرحمن الرحيم

احْتِرامُ الكَبِيرِ

الْحَمْدُ للهِ الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى، وَقَدَّرَ فَهَدَى، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، سُبْحَانَهُ خَلَقَ الإِنْسَانَ بِقُدْرَتِهِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ فَضْلَهُ وَوَاسِعَ رَحْمَتِهِ، وَحَاطَهُ بِشَرِيعَةٍ تَحْفَظُ كَرَامَتَهُ، وَتَصُونُ قَدْرَهُ فِي جَمِيعِ مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ، أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى جَزِيلِ نِعَمِهِ، وَعَظِيمِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، خَلَقَ الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالشَّرِيعَةِ السَّمْحَةِ وَالطَّرِيقِ القَوِيمِ، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الغُرِّ المَيَامِينِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَيَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1]، وَاعلَمُوا – وَفَّقَكُمُ اللهُ – أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ خَلْقَ الإِنْسَانِ يَمُرُّ بِأَطْوَارٍ ثَلاثَةٍ: مَرْحَلَةِ الضَّعْفِ وَهِيَ مَرْحَلَةُ الطُّفُولَةِ وَالصِّغَرِ، وَفِيهَا يَبْدُو الإِنْسَانُ مُحْتَاجًا إِلَى الرِّعَايَةِ وَالعِنَايَةِ، وَيَبْذُلُ وَالِدَاهُ جُهُودًا كَبِيرَةً فِي مُسَاعَدَتِهِ وَالحِفَاظِ عَلَيْهِ، ثُمَّ مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ وَهِيَ مَرْحَلَةُ القُوَّةِ وَالنَّشَاطِ وَالهِمَّةِ وَالعَمَلِ الكَادِحِ وَالحَيَاةِ النَّاهِضَةِ، وَفِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ يُعَدُّ الإِنْسَانُ سَاعِدَ الحَيَاةِ القَوِيَّ وَالمَسْؤُولَ عَنْ تَقَدُّمِهَا أَوْ تَأَخُّرِهَا، إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى مَرْحَلَةِ الضَّعْفِ وَالشَّيْخُوخَةِ، وَفِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ تَتَرَاجَعُ قُوَّةُ الإِنْسَانِ، وَيَنْحَسِرُ عَطَاؤُهُ وَنَشَاطُهُ، وَتَتَوَقَّفُ الكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِهِ وَحَرَكَاتِهِ حَتَّى يَعُودَ مُحْتَاجًا مَرَّةً أُخْرَى إِلَى المُسَاعَدَةِ وَالعَوْنِ، وَالعَطْفِ وَالرَّحْمَةِ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ المَرَاحِلَ الثَّلاثَ بِقَولِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[2]، وَقَدْ حَرَصَ الإِسْلامُ عَلَى تَنْظِيمِ

(١) سورة آل عمران / ١٠٢ .

(٢) سورة الروم / ٥٤ .

هَذِهِ المَرَاحِلِ الثَّلاثِ بِالأَخْلاقِ العَالِيَةِ، وَإِكْرَامِهَا بِالآدَابِ الحَسَنَةِ وَالصِّفَاتِ الجَمِيلَةِ؛ حَتَّى يَعِيشَ هَذَا الإِنْسَانُ مُكَرَّمًا فِي صِغَرِهِ وَقُوَّتِهِ وَكِبَرِهِ؛ مِصْدَاقًا لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1]، وَكَرَامَةُ الإِنْسَانِ وَاحْتِرَامُهُ وَمَنْزِلَتُهُ مَحْفُوظَةٌ فِي الإِسْلامِ مِنْ خِلالِ جُمْلَةٍ مِنَ التَّشْرِيعَاتِ وَالآدَابِ وَالأَخْلاقِ، يُطَبِّقُهَا الفَرْدُ وَالمُجْتَمَعُ، وَالدَّولَةُ وَالمُؤَسَّسَةُ أَيًّا كَانَتْ، وَأَيُّ خَلَلٍ فِي هَذَا التَّطْبِيقِ فَإِنَّ الحَيَاةَ سَوفَ تَتَحَوَّلُ إِلى فَوْضَى، وَتَهْبِطُ كَرَامَةُ الإِنْسَانِ وَتُمْتَهَنُ، حَتَّى يَحتَقِرَ الحَيَاةَ وَالعَيْشَ.

وَإِذَا كَانَ الصَّغِيرُ يَجِدُ مِنْ وَالِدَيْهِ وَالمُجتَمَعِ حَنَانًا فِطْرِيًّا وَعَاطِفَةً طَبِيعِيَّةً، وَإِذَا كَانَ الشَّبَابُ وَالأَقْوِيَاءُ يَنْهَضُونَ بِأَعْبَائِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَيَحتَرِمُهُمُ النَّاسُ لِمَكَانَتِهِمْ وَدَوْرِهِمْ فِي الحَيَاةِ؛ فَإِنَّ كِبَارَ السِّنِّ قَدْ لا يَجِدُونَ الاهتِمَامَ وَالعِنَايَةَ الكَافِيَةَ، وَلِذَلِكَ سَارَعَ الإِسْلامُ فِي تَوجِيهِ النَّاسِ إِلَى ضَرُورَةِ احتِرَامِ الكَبِيرِ وَإِعْطَائِهِ الكَرَامَةَ اللائِقَةَ وَالمَنْزِلَةَ الشَّرِيفَةَ، وَحَرَّمَ إِيذَاءَهُ أَوِ الاستِعْلاءَ عَلَيْهِ، فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا))، غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ مَعَ غِيَابِ التَّوْجِيهِ وَالإِرشَادِ وَالتَّرْبِيَةِ كَثِيرًا مَا يَجْهَلُونَ حُقُوقَ الكِبَارِ سَوَاءً كَانُوا مِنَ أَقَارِبِهِمْ أَمْ غَيْرِهِمْ، وَلِذَلِكَ لا بُدَّ مِنَ التَّذْكِيرِ المُستَمِرِّ بِقَوَاعِدِ السُّلُوكِ وَالآدَابِ وَصُوَرِ الاحتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ الَّتِي أَمَرَ الإِسْلامُ بِهَا فِي حَقِّ كِبَارِ السِّنِّ.

أَخِي المُسلِمَ:

إِنَّ الَّذِي يَكْبُرُكَ فِي السِّنِّ أَنْتَ مُطَالَبٌ أَنْ تُقَدِّمَ لَهُ الاحتِرَامَ وَالتَّقْدِيرَ مِنْ مُنْطَلَقِ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْكَ وَأَسَنُّ، وَلا يَمْنَعُ خِلافُكَ مَعَهُ فِي الرَّأْيِ أَنْ تَحتَرِمَهُ وَتُقَدِّرَهُ فَذَلِكَ شَيْءٌ يَخْتَلِفُ، فَالرَّأْيُ شَيْءٌ وَالمُعَامَلَةُ شَيْءٌ آخَرُ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا

(١) سورة الإسراء / ٧٠ .

لِسِنِّهِ إِلاَّ قَيَّضَ اللهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))، وَذِكْرُ " الشَّبَابِ " فِي الحَدِيثِ فِيهِ دَلاَلَةٌ عَلَى أَنَّ الشَّابَّ قَدْ يَصِلُ إِلَى لَحْظَةٍ يَعْتَدُّ فِيهَا بِقُوَّتِهِ، وَيَتَفَاخَرُ بِنَشَاطِهِ وَحَيَوِيَّتِهِ، فَيَدفَعُهُ ذَلِكَ إِلَى انْتِقَاصِ الكَبِيرِ أَوْ إِسَاءَةِ الأَدَبِ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُ، وَالحَدِيثُ يُذَكِّرُ الشَّابَّ بِأَنَّ المَرْحَلَةَ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا الكَبِيرُ سَوْفَ يَصِلُ إِلَيْهَا هُوَ أَيْضًا؛ فَيَحتَاجُ عِنْدَئِذٍ إِلَى مَنْ يَمُدُّ لَهُ يَدَ العَوْنِ، وَيَحتَرِمُهُ لِكِبَرِ سِنِّهِ وَخِبْرَتِهِ فِي الحَيَاةِ، سَاعَتَهَا سَتَكُونُ المُعَامَلَةُ الحَسَنَةُ الَّتِي كَانَتْ مَعَ الكَبِيرِ أَيَّامَ الشَّبَابِ مُكْرِمَةً لِهَذَا الإِنْسَانِ فِي كِبَرِهِ؛ فَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وَلَعَلَّ أَعْظَمَ صُورَةٍ يَرْسُمُهَا القُرآنُ الكَرِيمُ فِي الرَّحْمَةِ بِالكَبِيرِ، هِيَ تِلْكَ الَّتِي يُقَدِّمُهَا الوَلَدُ البَارُّ لِوَالِدَيْهِ وَقَدْ بَلَغَا مِنَ الكِبَرِ مَرْحَلَةً أَصْبَحَ مَعَهَا العَطْفُ عَلَيْهِمَا وَاجِبًا شَرْعِيًّا، وَقِيمَةً خُلُقِيَّةً عَالِيَةً، فَبَعْدَ أَنْ كَانَ جَنَاحُهُمَا يُفْرَشُ لِلْوَلَدِ الصَّغِيرِ هَاهُمَا قَدْ عَادَا إِلَى حَالٍ مِنَ الضَّعْفِ؛ وَجَبَ مَعَهَا عَلَى الوَلَدِ أَنْ يَفْرِشَ جَنَاحَهُ لَهُمَا، فَهَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[1]، ثُمَّ – يَا أَخِي – إِنَّكَ عِنْدَمَا تَحْتَرِمُ الكَبِيرَ تَكُونُ بِذَلِكَ مُبَجِّلاً للهِ تَعَالَى وَمُعَظِّمًا، لأَنَّ إِجْلاَلَ الكَبِيرِ مِنْ إِجْلاَلِ اللهِ؛ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسلِمِ))، وَلَقَدْ أَكَّدَ النَّبِيُّ ﷺ احتِرَامَ الكَبِيرِ وَتَقْدِيمَهُ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالمَجْلِسِ وَالعَطِيَّةِ؛ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((أَرَانِي فِي المَنَامِ أَتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ؛ فَجَاءَنِي رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الآخَرِ، فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الأَصْغَرَ مِنْهُمَا؛ فَقِيلَ لِي: كَبِّرْ؛ فَدَفَعْتُهُ إِلَى الأَكْبَرِ مِنْهُمَا))، إِنَّ لَدَى الكَبِيرِ خِبْرَةً وَاسِعَةً بِالحَيَاةِ، وَمَعَارِفَ تَرَاكَمَتْ عَبْرَ السِّنِينَ فَصَقَلَتْهَا الأَيَّامُ وَالتَّجَارِبُ، وَهَذَّبَتْهَا المَوَاقِفُ وَالتَّفَاعُلاتُ، فَإِذَا وَضَعْتَ لَهُ مَسَاحَةً لِيُشَارِكَكَ فِي الرَّأْيِ، مُستَشِيرًا

(١) سورة الإسراء / ٢٣-٢٤ .

أَوْ مُستَفيدًا، فَإِنَّ ذَلِكَ خُلُقٌ حَميدٌ، وَحِكْمَةٌ تَجِدُ آثَارَهَا فِي قَرَارَاتِكَ وَآرَائِكَ، وَتَجِدُ بَرَكَتَهَا فِي حَيَاتِكَ. وَمِنَ الآدَابِ أَنْ تُقَدِّمَ الكَبِيرَ فِي مَوَاطِنِ الاحتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ، فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَالدُّخُولِ وَالخُرُوجِ، وَتَضَعَ لَهُ فِي المَجْلِسِ المَكَانَ الَّذِي يَلِيقُ بِسِنِّهِ وَخِبْرَتِهِ فِي الحَيَاةِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ((أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ))، وَقَدْ طَبَّقَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، وَطَبَّقَهُ صَحَابَتُهُ الكِرَامُ، فَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ جَاءَ وَفْدُ عَبْدِ قَيْسٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِزِيَارَتِهِ؛ فَفَرِحَ الصَّحَابَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – بِزِيَارَتِهِمْ، وَوَسَّعُوا لَهُمُ المَكَانَ حَتَّى جَلَسُوا قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((مَنْ سَيِّدُكُمْ وَزَعِيمُكُمْ؟))؛ فَأَشَارُوا جَمِيعًا إِلَى المُنْذِرِ بْنِ عَائِذٍ، وَكَانَ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ أَنْ يُقَدِّمُوا الكَبِيرَ فِي السِّنِّ، فَقَامَ المُنْذِرُ وَوَسَّعَ لَهُ القَوْمُ حَتَّى جَلَسَ عَلَى يَمِينِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَرَحَّبَ بِهِ وَلَطَفَ بِهِ وَسَأَلَهُ عَنْ بِلادِهِمْ، وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ جَاءَ سَائِلٌ يَسْأَلُ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – طَعَامًا أَوْ مَالاً فَأَعْطَتْهُ، ثُمَّ جَاءَهَا رَجُلٌ ذُو هَيْبَةٍ وَسِنٍّ فَأَجْلَسَتْهُ حَتَّى أَكَلَ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمَّا سُئِلَتْ عَنْ ذَلِكَ قَالَتْ: ((أُمِرنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ)).

عِبَادَ اللهِ:

إِنَّ فِي تَفَاصِيلِ الحَيَاةِ أُمُورًا يَتَقَدَّمُ فِيهَا صَاحِبُ العِلْمِ وَالخِبْرَةِ وَالمَعْرِفَةِ عَلَى غَيْرِهِ، إِذْ إِنَّ التَّخَصُّصَ يَفْرِضُ ذَلِكَ، لَكِنَّ هَذَا لا يَعْنِي إِسَاءَةَ الأَدَبِ مَعَ الكَبِيرِ، بَلْ لا بُدَّ مِنَ التَّلَطُّفِ فِي القَولِ، وَالجَمَالِ فِي الخُلُقِ، وَمُرَاعَاةِ فَوَارِقِ العُمُرِ فِي أُسْلُوبِ الخِطَابِ وَالتَّعَامُلِ، لأَنَّ الكَبِيرَ فِي النِّهَايَةِ إِذَا تَسَاوَى مَعَكَ فِي العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ وَالخِبْرَةِ وَجَبَ تَقْدِيمُهُ أَدَبًا وَاحْتِرَامًا؛ لأَنَّهُ يَفُوقُ غَيْرَهُ بِمِيزَةٍ أُخْرَى وَهِيَ الكِبَرُ، فَفِي الصَّلاةِ مَثَلاً يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ : ((يَؤُمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي القِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَكْبَرُهُمْ سِنًّا))، بَلْ إِنَّ هَذَا يُرَاعَى حَتَّى فِي الصُّفُوفِ خَلْفَ الإِمَامِ لِتَكُونَ

الصَّلاةُ بِنفْسِهَا صُورَةً مِنْ صُوَرِ احترَامِ الصَّغِيرِ لِلْكَبِيرِ، وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى غَرْسِ هَذِهِ الآدَابِ فِي صَحَابَتِهِ، وَتَعْـلِيمِهِمْ إِيَّاهَا عَمَلاً وَتَطْبِيقًا، وَمِنَ التَّوقِيرِ لِلْكَبِيرِ أَنْ تُقَدِّمَهُ فِي الكَلامِ إِذَا حَضَرَ، وَتَبْدَأَهُ بِالسَّلامِ إِذَا رَأَيْـتَهُ، فَفِي يَوْمٍ جَاءَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ مُحَيِّصَةُ وَحُوَيِّصَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَبَدَأَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِالكَلامِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ((كَبِّرْ كَبِّرْ)) أَيْ لِيَتَكَلَّمِ الأَكْبَرُ سِنًّا، وَهَكَذَا تَتَجَلَّى صُوَرُ احترَامِ الصَّغِيرِ لِلْكَبِيرِ فِي الإِسْلامِ، وَتَتَأَكَّدُ لِتُصْبِحَ جُزْءًا مِنْ أَخْلاقِ المُسلِمِ مَعَ النَّاسِ مِنْ مُخْتَلَفِ الأَجْـنَاسِ.

فَاتَّقُوا اللهَ – عِبَادَ اللهِ –، وَكُونُوا عَلَى هَذَا الأَدَبِ فِي مُعَامَلَةِ الكَبِيرِ، عَوِّدُوا ذَلِكَ أَنْفُسَكُمْ، وَرَبُّوا عَلَيْهِ أَبْـنَاءَكُمْ، وَدَاوِمُوا عَلَيْهِ تَطْبِيقًا فِي مُخْتَلَفِ تَفَاصِيلِ حَيَاتِكُمْ؛ تَفُوزُوا بِرِضَا رَبِّـكُمْ.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرْ لَكُمْ إِنهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنهُ هُوَ البَرُّ الكَرِيمُ.

*** *** ***

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَذَّبَ أَخْلاقَنَا بِالدِّينِ، وَأَكْرَمَنَا بِاقْتِفَاءِ هَدْيِ خَيْرِ المُرْسَلِينَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(١)، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، سَيِّدُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَأَكْرَمُ خَلْقِ اللهِ أَجْمَعِينَ، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا عِبَادَ اللهِ:

إِنَّ حَقَّ الكَبِيرِ فِي الإِسْلامِ يَتَأَكَّدُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ كُلَّمَا كَانَ قَرِيبَ الصِّـلَةِ مِنَّا، فَذُو الرَّحِمِ وَالقَرِيبُ وَالجَارُ لَهُمْ حَقٌّ أَعْظَمُ، وَمَنْزِلَةٌ أَكْرَمُ، وَهَؤُلاءِ قَدْ يَضْطَرُّكَ طُولُ

(١) سورة الأحزاب / ٢١ .

العِشْرَةِ مَعَهُمْ أَنْ تَرْغَبَ فِي نُصْحِهِمْ، أَوْ تَوْجِيهِهِمْ إِلَى الصَّوَابِ إِذَا أَخْطَأُوا، فَكُنْ حَذِرًا فِي الكَلِمَةِ الَّتِي تَنْطِقُهَا حَتَّى لا تَنْقَلِبَ عَلَى عَكْسِهَا، وَكُنْ حَذِرًا فِي الأُسْلُوبِ الَّذِي تَتَّبِعُهُ حَتَّى لا يَتَحَوَّلَ إِلَى خِلافِ المَطْلُوبِ، وَلَنَا فِي إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ عِنْدَمَا كَانَ يُخَاطِبُ أَبَاهُ المُشْرِكَ بِأُسْلُوبٍ جَمِيلٍ يَحْفَظُ لَهُ مَكَانَهُ الأَبَوِيَّ، وَيَضْمَنُ وُصُولَ الكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ إِلَى قَلْبِهِ، فَكَانَ يُقَدِّمُ لِكُلِّ جُمْلَةٍ هَذِهِ العِبَارَةَ: " يَا أَبَتِ " كَمَا حَكَى اللهُ عَنْهُ ذَلِكَ فِي قَولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ، يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ، يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ، يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾[1]، وَفِي هَذَا الأُسْلُوبِ الرَّاقِي مَوَاطِنُ تَعْلِيمِيَّةٌ رَائِعَةٌ فِي مُخَاطَبَةِ الكَبِيرِ سَوَاءً كَانَ أَبًا أَمْ أَخًا أَمْ غَيْرَهُ، فَفِي الجُمْلَةِ الأُولَى لَمْ يَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ جَاهِلٌ أَوْ لا تَعْقِلُ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾، وَفِي الجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ قَالَ: ﴿جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَصْبَحْتُ أَكْثَرَ مِنْكَ فَهْمًا، وَأَعْمَقَ مِنْكَ إِدْرَاكًا وَتَحْلِيلاً، وَأَمْلَكَ مِنْكَ لِلشَّهَادَاتِ العِلْمِيَّةِ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ تَفَاخُرًا بِمَا لَدَيْهِ مِنْ شَهَادَاتٍ، وَفِي الجُمْلَةِ الثَّالِثَةِ قَالَ: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: أَنْتَ عَبْدٌ لِلشَّيْطَانِ، مُتَّبِعٌ لِهَوَاكَ، أَوْ أَنْتَ مُتَخَلِّفٌ تَعْبُدُ الخُرَافَاتِ، وَهَكَذَا تَأْتِي الجُمْلَةُ الرَّابِعَةُ لِتَكْشِفَ عَنْ نَفْسِيَّةِ الابْنِ الرَّحِيمِ المُشْفِقِ عَلَى أَبِيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ لَمْ تَسْمَعْنِي فَإِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المَصِيرُ. إِنَّ مُخَاطَبَةَ الكَبِيرِ تَحْتَاجُ إِلَى قَدْرٍ مِنَ الوَعْيِ وَاليَقَظَةِ، وَمَعْرِفَةٍ إِيْمَانِيَّةٍ تَحْفَظُ الكَرَامَةَ وَتَصُونُ الشَّرَفَ، وَحَاجَةُ جِيلِنَا الصَّاعِدِ إِلَى هَذِهِ الجُرْعَةِ المَعْرِفِيَّةِ ضَرُورَةٌ لاسْتِقَامَةِ الحَيَاةِ وَتَكَامُلِ البِنَاءِ.

(١) سورة مريم / ٤١-٤٥ .

فَاتَّقُوا اللهَ – عِبَادَ اللهِ –، وَقَدِّرُوا كِبَارَ السِّنِّ وَوَقِّرُوهُمْ وَأَجِلُّوهُمْ، وَأَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، وَلاَ سِيَّمَا الوَالِدَيْنِ مِنَ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾(١).

هَذَا وَصَلُّوْا وَسَلِّمُوْا عَلَى إِمَامِ الْمُرْسَلِيْنَ، وَقَائِدِ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِيْنَ، فَقَدْ أَمَرَكُمُ اللهُ تَعَالَى بِالصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ عَزَّ قَائِلاً عَلِيْمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾(٢).

اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وسَلَّمْتَ عَلَى سَيِّدِنا إِبْرَاهِيْمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنا إِبْرَاهِيْمَ، وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيْمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنا إِبْرَاهِيْمَ، فِي العَالَمِيْنَ إِنَّكَ حَمِيْدٌ مَجِيْدٌ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِيْنَ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِيْنَ، وَعَنْ المُؤْمِنِيْنَ وَالمُؤْمِنَاتِ إِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ، وَعَنَّا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُوْمًا، وَاجْعَلْ تَفَرُّقَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَفَرُّقًا مَعْصُوْمًا، وَلا تَدَعْ فِيْنَا وَلا مَعَنَا شَقِيًّا وَلا مَحْرُوْمًا.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالعَفَافَ وَالغِنَى.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْزُقَ كُلاًّ مِنَّا لِسَانًا صَادِقًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا خَاشِعًا مُنِيْبًا، وَعَمَلاً صَالِحًا زَاكِيًا، وَعِلْمًا نَافِعًا رَافِعًا، وَإِيْمَانًا رَاسِخًا ثَابِتًا، وَيَقِيْنًا صَادِقًا خَالِصًا، وَرِزْقًا حَلاَلاً طَيِّبًا وَاسِعًا، يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ.

اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ وَالْمُسْلِمِيْنَ، وَوَحِّدِ اللَّهُمَّ صُفُوْفَهُمْ، وَأَجْمِعْ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الحَقِّ،

(١) سورة البقرة / ٢٨١ .

(٢) سورة الأحزاب / ٥٦ .

وَاكْسِرْ شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ، وَاكْتُبِ السَّلاَمَ وَالأَمْنَ لِعِبادِكَ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَانَنَا وَأَعِزَّ سُلْطَانَنَا وَأَيِّدْهُ بِالْحَقِّ وَأَيِّدْ بِهِ الْحَقَّ يَا رَبَّ العَالَمِيْنَ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا اسْقِنَا مِنْ فَيْضِكَ الْمِدْرَارِ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الذَّاكِرِيْنَ لَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، الْمُسْتَغْفِرِيْنَ لَكَ بِالْعَشِيِّ وَالأَسْحَارِ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا فِي ثِمَارِنَا وَزُرُوْعِنَا وَكُلِّ أَرْزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ.

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوْبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ.

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الخَاسِرِيْنَ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِيْنَ وَالْمُسْلِمَاتِ، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيْعٌ قَرِيْبٌ مُجِيْبُ الدُّعَاءِ.

عِبَادَ اللهِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.